الشعر وسقوط الدولة الفاطمية

لما فتح جوهر الكاتب أحد قواد المعز لدين الله الفاطمى مصر سنة ٣٥٨ هـ. كتب أمانًا للمصريين، ونص على أن يترك للمصريين حريتهم فى اختيار العقيدة التى يرضونها لأنفسهم وأن لا يحملهم كرها على تغيير مذهبهم أو دينهم الذى دانوا لله به[١]، ولكن الفاطميين لم يحترموا هذا الأمان فقد قامت دولتهم على أساس عقيدتهم المذهبية، فكان من الطبيعى أن يعملوا على صبغ البلاد التى تخضع لحكمهم بهذه الصبغة المذهبية التى تمايزوا بها، فلا غرابة أن رأينا دعاتهم ينشطون فى كل البلاد، وفى كل المجتمعات يكالبون أصحاب المذاهب الأخرى، ويعقدون مجالس الحكمة التأويلية، ويأخذون العهد على كل مستجيب، واتخذوا للدعوة لمذهبهم وسائل وتدابير مختلفة، فاستجاب كثير من المصريين إلى دعوتهم وعقيدتهم، وظل بعض المصريين طوال الحكم الفاطمى حتى تأثر بها المصريون جميعا، سواء من دخل منهم فى الدعوة أو من ظل مستمسكًا بمذهب أهل السنة والجماعة، حتى خيل إلى كثير من الباحثين أن المصريين جميعًا أصبحوا يتمذهبون بعقيدة الفاطميين ويتبعون التقاليد الفاطمية، أى أن مصر قد طبعت بطابع العقائد الفاطمية طوال السنين التى خضعت فيها لحكم الفاطميين.

وبالرغم من أن نفوذ العقائد الفاطمية كان متغلغلًا فى مصر فإن هناك عدة عوامل عملت على إضعاف هذه العقيدة فى نفوس المصريين، ولعلنا لا نغالى إذا قلنا إن هذا الضعف بدأ فى عهد الحاكم بأمر الله «المتوفى حوالى سنة ٤١١ هـ، ولا سيما بعد أن وفد على مصر دعاة تأليه الحاكم أمثال الدرزى وحمزة والأخرم والفرغانى[٢]، ونحن نعلم أن المصريين ثاروا على هؤلاء الدعاة، وقتلوا الأخرم سنة ٤٠٨ هـ، وأن الدرزى وحمزة هربا، وأن الحاكم انتقم من المصريين فحرق الفسطاط وقتل عددًا كبيرًا من المصريين. وكانت خاتمة حياة الحاكم نهاية لهذه الدعوة الإلحادية الجريئة فى مصر، ولكن كان من نتائجها أن بدأ الناس يشكون فى عقيدة الفاطميين وفى كل ما قاله الدعاة عن الإمامة والأئمة، وظهرت هذه النتيجة بشكل لافت فى عهد المستنصر بالله (٤٢٧ هـ - ٤٨٧ هـ) ولا سيما فى تلك السنوات

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفاء ص ١٤٨ - ١٥٣ «طبع دار الفكر العربى».

(٢) راجع الرسالة الواعظة لأحمد حميد الدين الكرمانى نشر محمد كامل حسين «بمجلة كلية الآداب عدد مايو سنة ١٩٥٢م».

مـن حكمه التى ضعفت فيها الحياة الاقتصادية وبلغت درجة من الانحطاط جعلت الناس لا يرعون للإمامة حرمة ولا للعقيدة وزنا، فضعفت ثقة المصريين فى عقيدة الإمام المعصوم! وأنه الواسـطة بـين الله والخلق، وفى عقيدة النص على ولايـة العهد، وهى العقيدة التى كانت أساس مذهب الإسماعيلية وسببًا فى انقسام الشيعة الإمامية إلى إسماعيلية وموسوية فتهاون المصريون بهذه العقيدة؛ مما سهل الأمر للأفضل بن بدر الجمالى فى تحويل الإمامة بعد المسـتنصر إلى المستعلى وحرم منها صاحب النص نزار بن المستنصر؛ فانقسمت الدعوة إلى فرعين رئيسـيين، هما: الإسماعيلية النزارية التى عرفت بالإسماعيلية الشرقية أحيانًا وبالإسماعيلية الحشيشـية أحيانًا أخرى ويعرفـون الآن بالخوجة أو الأغاخانية، وإمامهم الآن هو أغاخان الرابع «كريم بن على بن محمد الحسينى»، والفرع الآخر هو الإسماعيلية المستعلية أو الإسماعيلية الغربية وهى التى ظلت فى مصر واليمن.

فـكان هذا الانفصال مـن عوامل ضعف العقيدة وزعزعتها مـن نفوس المصريين. أضف إلى ذلـك أنه لما قتل الآمر بأحكام الله سـنة ٥٢٤ هـ. ولم يكن له ولد، ذهب الصليحيون أصحاب الدعوة فى اليمن إلى أن الآمر لما قتل، كانت إحدى جهاته حاملا، وأنها أنجبت ولدًا له هو الطيب بن الآمر، وأن الإمامة للطيب هذا، وأنه دخل الستر وجعل الملكة الحرة الصليحية حجته وصاحبة السـتر عليه فوجد بذلك فرع جديد للإسماعيلية؛ وعرفت هذه الدعوة بالدعوة الطيبية ولا تزال تعرف بهذا الاسم إلى اليوم. وأتباع هذه الدعوة يعرفون الآن بالبهرة، وداعيهم المطلق هو طاهر سيف الدين، وإمامهم من نسل الطيب بن الآمر لا يزال فـى دور للسـتر، أما فى مصر فلم يعترف المصريون بشـىء اسمه الطيـب بن الآمر، وأقيم عبد المجيد بن محمد بن المستنصر المعروف بالحافظ لدين الله كفيلًا للإمام المنتظر فى أول الأمر، ثم اعترف بإمامته بعد ذلك، فكان الاعتراف بإمامته خارجًا عن أسـس الإمامة عند الإسماعيليـة؛ إذ الإمامة عندهـم لا تكون إلا فى الأعقاب[1]، وأن الإمام ينص على حجته وولى عهـده مـن أبنائه، ولا تنتقل الإمامة مـن أخ إلى أخ بل لابد أن تكون من أب إلى ابن والحافـظ لم يكـن ابنًا لإمام، فليس له حق فى الإمامة ومع ذلك اعترف به المصريون إماما تهاونًـا منهم بالعقيدة الإسماعيلية، مما أدى إلى زيادة اسـتخفافهم بالفاطميين وعقائدهم، وإلى تزعزعهـا من نفوس كثير ممن اسـتجابوا لها من المصريـين. وبلغ التهاون حدًا بعيدًا

(١) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٥ (نسـخة خطية بمكتبتى) والمجالس والمسـايرات ورقة ٧٩ ونسـخة خطية بمكتبتى.

حين نرى الوزير الفاطمى أبا الحسن بن السلار – المنعوت بالملك العادل سيف الدين الذى تولى الوزراة سنة ٥٤٤ هـ – يتظاهر بالتسنن على مذهب الشافعية. ولما وصل الحافظ أبو طاهر السلفى إلى الإسكندرية واتخذها دار مقامه احتفل به العادل بن السلار وعمّر له هناك مدرسة فوض تدريسها إليه، ولم يكن للشافعيين بالإسكندرية سواها[1] وهو عمل لا يقدم عليه الوزير إلا إذا كان على ثقة تامة أن أتباع العقيدة الفاطمية لا يستطيعون مقاومته، وذلك لضعفهم ولتزعزع العقيدة من نفوس أكثر المصريين، وهناك قصة عمارة اليمنى مع سيف الدين الحسين بن أبى الهيجاء صهر الملك الصالح طلائع بن رزيك، وهى إن دلت على شىء فإنما تدل على أن الشك فى العقيدة الفاطمية دبَّ فى نفس سيف الدين[2]، وقصة أخرى ذكرها عمارة أيضًا ترينا كيف كان الداعى ابن عبد القوى والوزير شاور وابنه الكامل يفكرون فى تسيير الدعوة لولدى صاحب عدن ونقل مركز الدعوة إلى عدن، فاستشاروا عمارة فى ذلك فقال: (إن أهل اليمن إنما يبعثون لكم الهدايا والتحف والنجاوى ويتولونكم لأجل الدعوة فإذا تبرعتم بها فقد هونتم حرمتها)[3]. فهذه كلها أدلة نسوقها على ما نذهب إليه عن مدى ضعف العقيدة فى نفوس أكثر المصريين فى أواخر أيام الفاطميين حتى نفوس بعض الدعاة وكبار رجال الدعوة.

ومع هذا الضعف الذى حل بمذهب الفاطميين فى مصر، فقد كان مظهر التشيع واضحًا بين بعض المصريين، وليس على ذلك من تلك الصورة القوية التى رسمها القاضى الفاضل فى إحدى رسائله يصور فيها مدى تظاهر المصريين بالتشيع وبالتقاليد الفاطمية فقد قال: (إن كلمة السنة بها وإن كانت مجموعة فإنها مقموعة، وأحكام الشريعة وإن كانت مسماة، فإنها متحاماة، وتلك البدع بها على ما يعلم، وتلك الضلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الإسلام ويحكم، وذلك المذهب قد خالط من أهله اللحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تعبد من دون الله تعظم وتفخم، فتعالى الله عن شبه العباد، وويل لمن غره الذين كفروا فى البلاد... ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير وسوادهم كبير وأموالهم واسعة، وكلمتهم جامعة، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر، والحيلة فى السر فيهم أنفذ من العزيمة فى الجهر، وبها رجال من السودان يزيدون على مائة ألف، كلهم

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧٠ (طبع المطبعة اليمنية).

(٢) عمارة اليمنى: النكت المصرية ص ١٢٦ (طبع سالون).

(٣) نفس المرجع السابق ص ٩٢.

أغنام أعجام. إن هم إلا كالأغنام لا يعرفون ربًا إلا ساكن قصره. ولا قبلة إلا ما يتوجهون إليه من ركنه وامتثال أمره، وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية موضوعة عنهم الجزية، كانت لهم شوكة وشكة وحُمة وحمية. ولهم حواش لقصورهم من بين داع تتلطف في الضلال مداخله وتصيب القلوب مخاتله، ومن بين كتاب تفعل أقلامهم أفعال الأسل، وخدام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل، ودولة قد كبر نملها الصغير ولم يعرف فيها غير الكبير؛ ومهابة تمنع ما يكنه الضمير. فكيف بخطوات التدبير. هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة، وتمطيل للفرائض على عادة جارية جائرة، وتحريف للشريعة بالتأويل، وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل، وكفر سمى بغير اسمه. وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه، فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار، ونَتَحَيَّفُهُمْ تَحَيُّفَ الليل والنهار. بعجائب تدبير لا تحتملها المساطير، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير. ولطيف توصل ما كان من صلة البشر ولا قدرتهم لولا إعانة المقادير)[1].

هذه صورة لحالة الدعوة الفاطمية في مصر حين قام صلاح الدين الأيوبى بمحوها من البلاد. رسم هذه الصورة رجل عاش في بلاط الفاطميين في أواخر أيامهم، فقد كان كاتبًا من كتابهم مُطَّلِعًا على أسرارهم ثم انقلب عليهم، واستوزر لصلاح الدين وكان عضده الأيمن في القضاء على الفاطميين، ولسنا في مجال الحديث عن القاضي الفاضل، وإنما الذى يهمنا في وصفه أن العقيدة الإسماعيلية قد خالطت من المصريين اللحم والدم، وأنه دبر تدابير مختلفة للقضاء على الفاطميين وكان نجاحه من المقادير، والذى يقرأ هذه الرسالة للقاضي الفاضل يروعه وصف القاضي لتغلغل العقيدة الفاطمية في المصريين، بينما نذهب نحن إلى أن العقيدة ضعفت عند المصريين؛ فالقاضي الفاضل قد وصف القصر والحاشية من كبار رجال الدولة من دعاة وكتاب، وهؤلاء بحكم صلتهم بالإمام الفاطمى كانوا على نحو ما ذكره القاضي الفاضل، ثم إن القاضي الفاضل قد بالغ في تصويره هذا ليضفى على ما قام به صلاح الدين الأيوبى من تقويض أركان الدولة الفاطمية قيمة وخطرا، ولم يتحدث القاضي الفاضل عن الشعب نفسه؛ فالشعب المصرى كان موزع الهوى بين هذه التقاليد الفاطمية التي ورثها عن قرنين من الزمان، وبين ما طرأ على هذه العقيدة الفاطمية من ضعف، لهذا تحول عدد من شيعة مصر إلى مذهب أهل السنة والجماعة وبقى عدد آخر على تشيعه وتأثره بالفاطميين، ولا سبيل لصلاح الدين الأيوبى ولا لغير صلاح الدين

(١) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٢٤١.

إلى انتزاع عقيدة من العقائد بحد السيف أو بالتدابير التى أشار إليها القاضى الفاضل فى رسالته السابقة. فليس من السهل اليسير أن يقتلع دين من الأديان بمجرد تغيير النظام السياسى فى بلد من البلاد، إنما يحتاج التغيير إلى سنوات عديدة وإلى تدابير ليست هى من تدابير القوة والبأس والبطش فحسب، وإذا نظرنا إلى الذين استجابوا لصلاح الدين وناصروه فسنجد أن جلهم بين هؤلاء الذين لم يعتنقوا المذهب الإسماعيلى ولم يتحولوا عن عقيدتهم، عقيدة أهل السنة والجماعة، وثبتوا أمام دعاة الإسماعيلية وسلطان أمّتهم، وبين هؤلاء الذين استجابوا إلى مذهب الإسماعيلية، ولكن ضعفت عقيدتهم من نفوسهم لما رأوا أن القائمين على هذه العقيدة انحرفوا عنها، ولم يعملوا بأصولها ولا بفروعها. فتحول هؤلاء عن إسماعيليتهم وهم مطمئنون بعد أن دب الشك فى نفوسهم، وفريق ثالث من الذين ساعدوا صلاح الدين فى قطع الخطبة للفاطميين وتحويلها إلى العباسيين هم هؤلاء الذين يعرفون بأنهم يأكلون على كل الموائد ولا يعملون إلا لأنفسهم ويحاولون الإفادة من كل تغيير، فهم أتباع كل جديد لا لشىء سوى الإفادة من النظم الجديدة؛ فكثير من رجال الدولة الفاطمية أصبحوا من ألدّ اعدائها فى عصر الأيوبيين، ومن هؤلاء القاضى الفاضل نفسه، والقاضى ابن سناء الملك، والقاضى ابن الزبير، وابنا القاضى الجليس ابن الحباب وغيرهم. أما الشعب - ولاسيما طبقة الجهال - فقد ظلوا على إسماعيليتهم. ويكفى أن أثبت هنا إحدى مقطوعات القاضى الفاضل فى مدح أحد خلفاء الفاطميين وأخرى فى مدح صلاح الدين لنتبين كيف أصبح القاضى الفاضل بين عشية وضحاها عدوًا لتلك الدولة التى أكرمته ورفعته والتى أشاد بها هو أيام حكمهم. فلما دالت دولتهم انقلب عليهم. فهو يقول فى قصيدته التى مطلعها: (تزهو بدولتك الدنيا وتفتخر) يمدح الخليفة الفاطمى:

وإن أساءت بنا الدنيا وما اعتذرت ... لنا فإنك تعطينا وتعتذر
أما الكواكب والأنوار شاهدة ... فتستعير سناه حين تستعر
وجهٌ نَدِيٌّ بشره مفتاح كل منى ... مرامها وعرٌ أو فعلها عسر
لكل ظامئة من دمائه رمق ... فى كل داجية من نوره قمر
مستعظم الخبر المسموع إذ ظفرت ... عينى بطلعته فاستصغر الخبر
قد كان يبلغ سمعى فى مكارمه ... فقلت هيهات أن يحظى بذا بشر
فالحمد لله حمدًا غير مقتصر ... إن قصر السمع عما ناله النظر
فى كل سمع له من شاكر خبر ... فى كل كف له من آملٍ أثر

وكيف أحتار أن أحظى بزورته ... فاليوم قد جمعت لى عنده الخير
مكارم لا ينال الحصر غايتها ... فلا عجيب إذا ما نالنى الحصر
هذى الموارد والآمال واردة ... فلينسك الصفو منها ما جنى الكدر
مواردٌ ببرق البشر قد مزجت ... كذلك السحب فيها البرق والمطر
ألقت على مائها أنوار غرته ... يا حسن ما خفى الإحسان والخفر[1]

ثم نراه يمدح الملك الناصر صلاح الدين بعدة قصائد إن دلت على شىء فإنما تدل على غلوّ فى المديح وإسباغ الصفات على نحو ما كان يفعله مع الخلفاء الفاطميين. فانظر إليه وهو يقول فى إحدى قصائده فى الناصر صلاح الدين:

لأمرك أمر الله بالنجح عاضد ... فَصُلْ آمرًا فالدهر سيف وساعد
وقل ما اقتضت عليك فالعز قائم ... بأمرك والمجد المؤثل قاعد
ونم وادعا فالمجد يقظان حارس ... لمجدك والعادى لبأسك راقد
فما تبرم الأيام والله ناقض ... ولا تنقض الأيام والله عاقد
وقد برزت بكر المكارم والعلا ... وفى جيدها من راحتيك قلائد
فخفت بها الأملاك وهى مواهب ... وسارت بها الركبان وهى محامد
وزفت لها النعماء وهى مصادر ... رفعنا لها الأمداح وهى موارد
فنثرها الإحسان وهى لآلئ ... ونظمها الإفضال وهى فرائد
فلازلت محروس العلا يا ابن صاعد ... وجدك فى أفق السيادة صاعد
تسرّ بك الدنيا ويبتهج الورى ... وتستوى كف النعمى وتحوى المقاصد[2]

ومهما يكن من شىء فإن شعراء مصر والشام أكثروا من مدح صلاح الدين بمجرد إعلان قطع الخطبة عن الفاطميين ولاسيما هؤلاء الشعراء الذين أحاطوا بصلاح الدين وعدوا من شعرائه. فمن ذلك ما قاله العماد الأصفهانى:

قد خطبنا للمستضئ بمصر ... نائب المصطفى إمام العصر
وخذلنا لنصرة العضد العا ... ضد والقاصر الذى بالقصر[3]

---

(١) ديوان القاضى الفاضل (نسخة خطية بدار الكتب المصرية).

(٢) نفسه.

(٣) أراد بالعضد وزير بغداد عضد الدين بن رئيس الرؤساء. قال العماد فى كتاب الخريدة قصدت بالعضد والعاضد المجالسة ونصرة وزير الخليفة كنصرته.

وأشعنا بها شعار بنى العب ... اس فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا الدعىّ يدعو ثبورا ... وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخط ... بة للهاشمى فى أرض مصر
ولدينا تضاعفت نعم الل ... ه وجلت عن كل عد وحصر
فاغتدى الدين ثابت الركن فى مص ... ر محوط الحمى مصون الثغر
واستنارت عزائم الملك العا ... دل نور الدين الكريم الأغر
وبنو الأصفر القوامص منه ... بوجوه من المخافة صفر
عرف الحق أهل مصر وكانوا ... قبله بين منكر ومقر
قل لداعى الدعى حسبك فالل ... ه أقر الحقوق خير مقر
هو فتح بكر ودون البرايا ... خصنا الله بافتراع البكر
وحصلنا بالحمد والأجر والنص ... ر وطيب الثنا وحسن الذكر
ونشرنا أعلامنا السود قهرا ... للعدى الزرق بالمنايا الحمر
واستعدنا من أدعياء حقوقا ... يدعى بينهم لزيد وعمرو
والذى يدعى الإمامة بالقاهر ... ة انحط فى حضيض القهر
خانه الدهر فى مناه ولا يط ... مع ذو اللب فى وفاء الدهر
ما يقام الإمام إلا بحق ... ما تحاز الحسناء إلا بمهر
خلفاء الهدى سراة بنى العب ... اس والطيبون أهل الطهر
بهم الدين ظافر مستقيم ... ظاهر قوة قوى الظهر
كشموس الضحى كمثل بدور ال ... تمّ كالسحب كالنجوم الزهر
قد بلغنا بالصبر كل مراد ... وبلوغ المراد عقبى الصبر
ليس مثرى الرجال من ملك الما ... ل ولكنما أخو اللب مثرى
ولهذا لم ينتفع صاحب القص ... ر وقد شارف الدثور بدثر
دام نصر الهدى بملك بنى العبا ... س حتى يقوم يوم الحشر[1]

ولما توفى الخليفة العاضد الفاطمى فى ليلة عاشوراء سنة ٥٦٧ هـ قال العماد الأصفهانى:

توفى العاضد الدعى فما ... يفتح ذو بدعة بمصر فما

(١) أبو شامة: الروضتين ج١ ص ١٩٨ - ١٩٩.

وعصر فرعونها انقضى وغدا ... يوسفها فى الأمور محتكما
وانطفأت جمرة الغواة وقد ... باخ من الشرك كل ما اضطرما
وصار شمل الصلاح ملتئما ... بها وعقد السداد منتظما
لما غدا معلنا شعار بنى الـ ... عباس حقا والباطل اكتتما
وبات داعى التوحيد منتصرا ... ومن دعاة الإشراك منتقما
وظل أهل الضلال فى ظلل ... داجية من غيابة وعمى
وارتبك الجاهلون فى ظلم ... لما أضاءت منابر العلما
وعاد بالمستضئ ممتهدا ... بناء حق قد كان منهدما
واعتلت الدولة التى اضطهدت ... وانتصر الدين بعدما اهتضما
واهتز عطف الإسلام من جذل ... وافتر ثغر الإيمان وابتسما
واستبشرت أوجه الهدى فرحا ... فليقرع الكفر سنّه ندما
عاد حريم الأعداء منتهك الـ ... حمى وفىء الطغاة مقتسما
قصور أهل القصور أخربها ... عامر بيت من الكمال سما
أزعج بعد السكون ساكنها ... ومات ذلاً وأنفه رغما[1]

وقال بعض الشعراء فى مدح الأيوبيين معرضًا بالفاطميين:

ألستم مزيلى دولة الكفر من بنى ... عبيد بمصر إن هذا هو الفضل
زنادقة شيعية باطنية ... مجوس وما فى الصالحين لهم أصل
يُسرون كفرا يظهرون تشيعا ... ليستتروا شيئا وعمهم الجهل[2]

ويقول عرقلة فى استيلاء صلاح الدين على مصر وخلع الخطبة الفاطمية:

أصبح الملك بعد آل على ... مشرقا بالملوك من آل شاذى
وغدا الشرق يحسد الغرب للقو ... م ومصر تزهو على بغداد
ما حووها إلا بحزم وعزم ... وصليل الفولاذ فى الفولاذ
لا كفرعون والعزيز ومن كا ... ن بها كالخصيب والأستاذ[3]

(١) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ١٩٥.
(٢) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٢٠٢.
(٣) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٢٠٠.

انقسم المصريون بين مؤيد لصلاح الدين وحركته فى إبادة التشيع من مصر، وبين متمسك بتشيعه يندب أيام الفاطميين ويبكى على أئمته، وقد حاول هؤلاء مرارا أن يعيدوا الخلافة الفاطمية، فكان يظهر من حين لآخر من كان يدعو فى البلاد إلى الفاطميين فيلتف الناس حوله وتخف جنود الأيوبيين للقضاء على حركته. فمن ذلك ما كان فى سنة ٥٦٩ هـ إذ قام بعض رجال الدولة الفاطمية برياسة هبة الله بن كامل قاضى القضاة وداعى الدعاة بحركة لإعادة ملك الفاطميين فى مصر، وأسهم فى هذه الحركة عمارة اليمنى بالرغم من تسننه، والداعى عبد الجبار بن اسماعيل بن عبد القوى وغيرهما وامتدت هذه الثورة إلى حد أنهم كاتبوا الصليبيين وشيخ الجبل «راشد الدين سنان» زعيم الإسماعيلية النزارية فى الشام، ولكن هذه الحركة فشلت وقبض على رؤسائها وقتلوا صلبا.

ومن الغريب أن عمارة اليمنى كان ممن مدح صلاح الدين الأيوبى أيام وزارته، ومدح أباه نجم الدين. ويظهر فى مدائحه فضل صلاح الدين فى إعادة مجد الإسلام ووحدة المسلمين، كما مدح توران شاه أخا صلاح الدين وحبذ إليه فتح اليمن. فمما قاله فى مدح صلاح الدين عندما غزا غزة سنة ٥٦٦ هـ أى قبل انقراض الدولة الفاطمية بعدة أشهر:

غزوا عقر دار المشركين بغزة ... جهارا وطرف الشرك خزيان مطرق
وزاروا مصلى عسقلان بأرعن ... يفيض إناء البر منه ويفهق
وكانت على ما شاهد الناس قبلهم ... طرائق من شوك القنا ليس تطرق
وما عصمنهم منك إلا معاقل ... تأنوا على تحصينها وتأنقوا
جلبت لهم من سورة الحرب ما التقى ... بوادره سور عليهم وخندق
وأخربت من أعمالهم كل عامر ... يمر به طيف الخيال فيغرق
أضفت إلى أجر الجهاد زيارة الـ ... خليل فأبشر أنت غازٍ موفق
وهيجت للبيت المقدس لوعة ... يطول بها منه إليك التشوق
تنشق من ملقاك أعظم نفحة ... تطيب على قلب الهدى حين تنشق
وغزوك هذا سلم نحو فتحه ... قريبا وإلا رائد ومطرق
هو البيت إن تفتحه والله فاعل ... فما بعده باب من الشام مغلق[1]

(١) أبو شامة: الروضتين. ج ١ ص ١٩٣.

كما قال فى مدح نجم الدين:

ثغر الزمان بنجم الدين مبتسم ... ووجهه بدوام العز متسم
أضحى بك النيل محجوجًا ومعتمرًا ... كأنما حل فيه الحل والحرم
جاءت بنوك وشمل الدين منتثر ... فقارعوا عنه فهو اليوم منتظم
وما درى أحد من قبل رؤيتهم ... أن الحظوظ بلثم الأرض تقتسم
نامت عيون الورى فى عدل سيرتهم ... كأن يقظتنا فى عصرهم حلم
والناصر ابنك كافٍ كل معضلة ... إذا الحوادث لم يكشف لها غمم
أعز بالبأس والإحسان حوذتنا ... فلم يلم بنا خوف ولا عدم
تبسم الدست من أيوب عن ملك ... تنحط عن قدره الأقدار والهمم[1]

ولما توفى نجم الدين رثاه عمارة بعدة قصائد نذكر منها قوله:

صفو الحياة وإن طال المدى كدر ... وحادث الموت لا يبقى ولا يذر
وما يزال لسان الدهر ينذرنا ... لو أثرت عندنا الآيات والنذر
فلا تقل عزت الدنيا مطامعنا ... فما مع الموت لا غشى ولا كدر
كأس إذا ما الردى حيا الحياة بها ... لم ينج من سكرها أنثى ولا ذكر
كم شامخ العز لاقى الذل من يدها ... ما أضعف القدر إن ألوى به القدر
فى كل جيل وعصر من وقائعها ... شعواء يقطر منها الناب والظفر
أودى علىّ وعثمان بمخلبها ... ولم يفتها أبو بكر ولا عمر
ومن أراد التأسى فى مصيبته ... فللورى برسول الله معتبر
نجم هوى من سماء الدين منكدرا ... والنجم من أفقه يهوى وينكدر
منظومة أبحر الجوزاء من جزع ... له وعقد الثريا منه منتثر
وكيف ينسى محياه الكريم ومن ... نعماه فى كل عيش صالح أثر
جددت من أسد الدين الشهيد لنا ... حزنا به يتساوى الصبر والصبر
قد كان للدين والدنيا بعزمكما ... ذكر يعبر عنه الصارم الذكر
إن فاح نشر كلام تمدحان به ... مسكا فعترة أيوب هى العطر

(١) نفس المصدر ص ٢١١.

تخفى ذبال مصابيح إذا طلعوا ... صبحًا وتنسى ملوك الأرض إن ذكروا
كأنما صور الله الكمال بهم ... شخصًا ويوسف منه السمع والبصر
لاشوبك منه معصوم ولا كرك ... ولا خليل ولا قدس ولا زغر
لم يرتحل قافلًا إلا وساكنها ... إما مباح حماه أو دم هدر
ما مات أيوب إلا بعد معجزة ... فى المجد لم يؤتها من جنسه بشر
مضى سعيدا من الدنيا وليس له ... فى رتبة أربٌ بساقٍ ولا وطر
وطَوَّلَ الله منه باع أربعة ... منها الندى والتقى والملك والعمر
وأشرف الملك ما امتدت مسافته ... فى صحة أخواها العقل والبكر
ومن سعادته إن مات لا سأم ... يشكوه منه معانيه ولا ضجر[1]

ومع ذلك كله، فقد تآمر عمارة على صلاح الدين، وكاتب المتآمرون أعداء الدين من الصليبيين فى فلسطين، والنورمنديين فى صقلية لغزو مصر، فلما صلب هو وأصحابه، أنشد شعراء مصر فى ذلك. فالشاعر تاج الدين الكندى يقول:

عمارة فى الإسلام أبدى جناية ... وبايع فيها بيعة وصليبا
وأمسى شريك الشرك فى بغض أحمد ... فأصبح فى حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى إن عجمته ... تجد منه عودًا فى النفاق صليبا
سيلقى غدا ما كان يسعى لأجله ... ويسقى صديدا فى لظى وصليبا[2]

(يقصد بالصليب الأول النصارى، والثانى بمعنى مصلوب والثالث من الصلابة والرابع ودك العظام. وقيل هو الصديد أى يسقى ما يسيل من أهل النار).

وفى هذه المؤامرة كتب القاضى الفاضل رسالة شرح فيها قضية من صلب جاء فيها: «قصر هذه الخدمة على متجدد سار للإسلام وأهله. وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله فى إظهاره على الدين كله، بعد أن كانت لها مقدمات عظيمة إلا أنها أسفرت عن النجح، وأوائل كالليلة البهيمة إلا أنها انفرجت عن الصبح. فالإسلام ببركاته البادية، وفتكاته الماضية، قد عاد مستوطنا بعد أن كان غريبا، وضرب فى البلاد بجرانه بعد أن كان كالكفر يتم عليه تخيلا عجيبا، إلا أن الله سبحانه أطلع على أمرها من أوله وأظهر على سرها

(١) أبو شامة: الروضتين: ج ١ ص ٢١٢.
(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٢٢٢.

مـن مسـتقبله، والملوك يأخذ فى ذكـر الخبر ويعرض عن ذكر الأثر، لم يزل يتوسـم من جند مصر ومن أهل القصر بعد ما أزال الله من بدعتهم، ونقض من عرى دولتهم، وخفض مـن مرفـوع كلمتهم، أنهم أعـداء وإن تعدت بهم الأيام. وأضـداد وإن وقعت عليهم كلمة الإسلام، وكان لا يحتقر منهم حقيرا، ولا يستبعد منهم شرا كبيرا. وعيونه لمقاصدهم موكلة وخطراته فى التحرز منهم مسـتعملة، لا تخلو سـنة تمر ولا شهرا يكر، من مكر يجتمعون عليه وفسـاد يتسـرعون إليه، وحيلة يبرمونها ومكيدة يتممونها، وكان أكثر ما يتعللون به ويسـتريحون إليه المكاتبات المتواترة والمراسـلات المتقاطـرة إلى الفرنج، خذلهم الله، التى يوسـعون لهم فيها سـبل المطامع، ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع، ويزينون لهم الإقدام والقدوم، ويخلعون فيها ربقة الإسـلام خلع المرتد المخصوم. ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم، إلا أنهم لا يقطعون حبل طمعهم على عادتهم، وكان ملك الفرنج كلما سـولت له نفسـه الاستتار فى مراسـلتهم والتحيل فى مفاوضتهم سير «جرج» كاتبه رسولا إلينـا ظاهـرا وإليهم باطنا عارضا علينـا الجميل الذى ما قبلته قط أنفسـنا، وعاقدا معهم القبيح الذى يشتمل عليه فى وقته علمنا، ولأهل القصر والمصريين فى أثناء هذه المدد رسل تـتردد، وكتـب إلى الفرنج تجدد» ثم قال: «والمولى عالم إن عادة أوليائه المسـتفادة من أدبه ألا يبسطوا عقابا مؤلما، ولا يعذبوا عذابا محكما. وإذا طال لهم الاعتقال ولم ينجع السؤال أطلق سـراحهم وخلى سـبيلهم، فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة، ولا الرقة عليهم إلا قساوة، وعند وصول جرج فى هذه الدفعة الأخيرة رسولا إلينا بزعمه ورد إلينا كتاب ممن لا نرتاب به من قومه يذكرون أنه رسـول مخاتلة لا رسـول مجاملة، وحامل بليّة لا حامل هدية، فأوهمناه الإغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه وإليه فتوصل مرة بالخروج ليلا ومرة بالركوب إلى الكنيسة، وغيرها نهارا إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدامه وبأمراد المصريين وأسبابهم وجماعـة من النصارى واليهود وكلابهم وكتابهم. فدسـسـنا إليهم من طائفتهم من داخلهم فصار ينقل إلينا أخبارهم ويرفع إلينا أحوالهم، ولما تكاثرت الأقوال وكاد يشتهر علمنا بهذه الأحوال، استخرنا الله تعالى وقبضنا على جماعة مفسدة، وطائفة من هذا الجنس متمردة، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة، والسرائر المنافقة، فكلا أخذ الله بذنبه، فمنهم من أقر طائعا عند إحضاره، ومنهم من أقر بعد ضربه فانكشفت أمور أخرى كانت مكتومة، ونوب غير التى كانت عندنا معلومة، وتقريرات مختلفة فى المراد متفقة فى الفساد».

ثـم ذكر تفصيلا حاصله: أنهـم عينوا خليفة ووزيرا مختلفين فى ذلك فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن، من بنى عم العاضد، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد وإن كان صغيرا، واختلف هؤلاء فى تعيين واحد من ولدين له، وأما بنو رزيك وأهل شـاور، فـكل منهم أراد الوزارة لبيتهـم من غير أن يكون لهم غرض فى تعيين الخليفة، ثم قال: وكانوا فيما تقدم، والملوك على الكرك والشـوبك بالعسـكر قد كاتبوهم، وقالوا لهم: إنه بعيد والفرصة قد أمكنت، فإذا وصل الملك الفرنجىُّ إلى صدر أو أيلة ثارت حاشـية القصر وكافة الجند وطائفة السـودان وجموع الأرمن وكافة الإسماعيلية، وفتكت بأهلنا وأصحابنا فـى القاهرة، ثـم قال: ولما وصل جـرج كتبوا إلى الملك الفرنجى أن العسـاكر متباعدة فى نواحى إقطاعاتهم، وعلى قرب من موسـم غلاتهـم، وأنه لم يبق فى القاهرة إلّا بعضهم، وإذا بعثت أسطولا إلى بعض الثغور أنهض فلانا من عنده وبقى فى البلد وحده، ففعلنا ما تقدم ذكره من الثورة، ثم قال: وفى أثناء هذه المدة كاتبوا سنانا صاحب الحشيشية، بأن الدعـوة واحدة، والكلمة جامعة، وأن لا بين أهلها خلاف إلاّ فيما لا يفترق به كلمة، ولا يجب به قعود عن نصره، واسـتدعوا منه من يتمم على الملوك غيلة، أو يبيت له مكيدة وحيلة، والله من ورائهم محيط، وكان الرسـول إليهم عن المصريين خال بن قرجلة المقيم الآن هو وابن أخته عند الفرنج، ولما صحَّ الخبر وكان حكم الله أولى ما أخذ به، وأدب الله أمضـى فيمن خرج عن أدبه، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى، وتوالت من أهل المشـورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى، قتل الله بسيف الشرع المطهَّر جامعة من الغواة الغلاة الدعاة إلى النار، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلوه من الفجار، وشنقوا على أبواب قصورهم، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم، ووقع المتتبع لأتباعهم، وشـردت طائفة الإسماعيلية ونفوا، ونودى بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السودان إلى أقصـى بـلاد الصعيد، فأما من جهة القصر فقد وقعت الحوطة عليهم إلى أن ينكشـف وجه رأى يمضى فيهم، ولا رأى فوق رأى المولى، والله سـبحانه المسـتخار وهو المستشار، وعنـده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده وتمضـى الحدود بتحديده، ورأى الملوك إخراجهم من القصر، فإنهم مهما بقوا فيه بقيت مادة لا تتحشم الأطماع عنها فإنه حبالة للضلال منصوبة وبيعة للبدع محجوبة...إلخ[1].

(١) أبو شامة: الروضتين ج١ ص ٣٣١.

ولعل ثورة كنز الدولة بن المتوج كانت من أكبر الثورات وأشدها ضد صلاح الدين، فقد كان كنز الدولة أميرا لأسوان، وكان مقصد الشعراء لجوده وشجاعته.. مدحه عدد كبير من شعراء مصر، نذكر منهم الشاعر محمد بن على بن الغمر المتوفى سنة ٥٧٤ هـ. فمن قوله فيه:

أراعك فى جنح من الليل طارق ... كما سل من غمد السحابة بارق
وكالنيل هذا الودق يروى أباطحا ... ويحرم أدنى الرى منه الشواهق
ستبقى على الأيام منى مآثر ... غرائب تبقى دونهن المهارق
إذا جال فرسان العلوم فإننى ... بأيسر تقريب هناك أسابق
وسائلة بهرام كيف لقاؤه ... وفى الوجه منه مخبر عنه صادق
رآك وقد طارت شعاعا قلوبُهن ... فطارت بهن تلك العتاق السوابق
فياَ منْ حوى عصر الشبيبة أشيبا ... وجاز وفاء الشيب وهو مراهق[1]

ومدحه الشاعر محمد بن رائق المكين أبو عبد الله الأسوانى فمن قوله:

بالسَّفح من ربع سلمى منزل دثرا ... فاسفح دموعك فى ساحاته دررا
واستَوْقِف الركب واسْتَسْقِ الغمام له ... والْثَم صعيدا تراه الأنفر العطرا
واستخبر الدار عن سلمى وجيرتها ... إن كانت الدار تعطى سائلا خبرا
وكيف تسأل دارا لم تدع جلدا ... لسائليها ولا سمعا ولا بصرا[2]

ومدحه أبو محمد الحسن بن الزبير فمن قوله فيه:

وينجده إن خانه الدهر أوسطا ... أناس إذا ما أنجد الذل أتهموا
أجاروا فما تحت الكواكب خائف ... وجادوا فما فوق البسيطة مُعدم

ويقال إن كنز الدولة أجازه على تلك القصيدة بما يساوى ألف دينار ووقف عليه ساقية تساوى ألف دينار[3]..

---

(١) الإدفوى: الطالع السعيد ص ٣٠٩.
(٢) الإدفوى: الطالع السعيد ص ٢٨٨.
(٣) المقريزى: ج ١ ص ٣٢١.

ومما قاله الشاعر محمد بن أحمد الأسوانى فى مدح كنز الدولة:

هل المجد إلا ما اقتنته الصوارم ... أو المجد إلا ما بنته المكارم
أو العز إلا ما أشاد منـاره ... وقائع يبقى ذكرها وملاحم
أو الفخر إلا المتوج لابس ... حلاه وراق فى علاه وراقم
إذا أخلفت سحب فغيث مساجم ... وإن سجرت حرب فليث ضيارم
وكفت فينا يد وكفت ردى ... فلا الحرب مخشى ولا الخطب قادم
ويعصى بفضل والحلوم سفيهة ... ويقضى بفضل والرماح تخاصم[1]

ونذكر أيضا من شعرائه أحمد بن محمد الروزبى وعبد الله بن محمد بن زُريق وعبد الله بن أحمد بن سلامة وغيرهم... .

أراد كنز الدولة هذا أن يعيد ملك الفاطميين فجمع حوله عددا كبيرا من السودان وتقدم بجيوشه حتى بلغ مدينة قوص، وهناك لقيه الملك العادل أخو صلاح الدين فى جيش كثيف سنة ٥٧٠ هـ هزم كنز الدولة وتفرق عنه السودان وهرب أكثرهم إلى بلاد النوبة فاستقروا فى السودان ولم يعودوا إلى مصر.. وفى كتاب صبح الأعشى رسالة بقلم القاضى الفاضل فى ذكر هذا الانتصار وما لقيه جيش صلاح الدين من عناء ثم من انتصار فى هذه الموقعة فليرجع إليها الباحثون[2]..

وفى هذه الموقعة أنشد النظام المصرى جبرائيل بن ناصر يمدح الأيوبيين قائلا:

ومن ذا يطيق الترك فى الحرب إنهم ... بنوها وكل الناس زور وباطلُ
حماة كماة كالضراغم، خيلهم ... معاقلهم، والخيلَ نعمَ المعاقل

ومنها:

بجيش يضيع الليل فيه إذا سرى ... وتخفى نجومَ الجوّ منه القساطل
إذا ما خبت فيه المشاعل عاضها ... من أيدى الجياد المنعلات مشاعل
وتطرد الرايات فيه كأنها ... أفاعٍ إلى أوكارهن جوافل
فما لاح ضوء الصبح حتى تحكمت ... لهمٍ فى أعاديهم قنًا ومناصل
كأن مثار النقع سحبٌ وبيضهم ... بروق تلالا فيه والدم وابل

(١) الإدفوى: الطالع السعيد ص ٦٦.
(٢) صبح الأعشى ج ٦ ص ٥٠٦.

ومنها:

لكم يا بنى أيوب فى البأس والندى ... مذاهب تعيى غيركم ومداخل
ألنتم لنا الأيام من بعد قسوة ... وحلَّيتموها وهى قبل عواطل
وقلدتمونا البيض تثقل بالحُلى ... عواتقنا أغمادها والحمائل
ضربنا بها أعداءكم فجيادنا ... لها من دماء المارقين خلاخل[1]

وله قصيدة أخرى فى نفس الموقعة وفيها يقول[2]:

أما ملَّ من عذلى عاذلى ... فيطرح جبلى على كاهلى
لقد أطمع النفس فى سلوة ... يخيِّبها طمع العاقل
ومن غير هذا الهوى إننى ... لأعشق من عشقه قاتلى
أحب فأقتل نفسى فلا ... أفوز من الحب بالطائل
ولى كل يوم وقوف على ... حمى وسلام على راحل
متى يسأم القلب من هجركم ... فيصغى إلى عذل العاذل
ويبطل سحر الجفون التى ... بها يعمل السحر فى بابل
ويخلو فؤاد امرئ لم يزل ... من الوجد فى شغلٍ شاغل
متى ما وجدت لكم وحشة ... تعللتُ بالشبح الماثل

ومنها:

صلوا واعطفوا وارحموا وأحسنوا ... وجودوا فلا خير فى باخل
فلست بتارك حق الهوى ... ولو أننى منه فى باطل
ولكن إذا مضَّنى جوركم ... شكوت إلى الملك العادل
مليك مشى الناس فى عصره ... من العدل فى منهج سابل

ومنها:

أقام الجهاد على سوقه ... وحرب كحرب بنى وائل
ففى كل يوم له جحفلٌ ... يغير على الشرك بالساحل

---

(١) العماد الأصفهانى: الخريدة ج ٢ ص ١٤٠.
(٢) نفس المرجع ص ١٤١.

ويقول أبو الحسن بن الذروى يهنئ السلطان صلاح الدين بالانتصار فى هذه المعركة:

فقدم العزم فذا مبتداه ... يقصر عن ملك الأرض منتهاه
واسحب ذيول الجيش حتى ترى ... أنجمَه طالعةً عن دجاه
سواك من ألقى عصاه بها ... قناعة لما استقرت نواه
عليك بالروم وضع صاحب التا ... ج إذا شئت وتورانشاه
فقد غدت ابربم فى ملكه ... تبرم أمرًا فيه كبت العداه
لابدَّ للنوبة م ن نوبة ... ترضى لسخط الكفر دين الإله
تظل من نوبة منسوبة ... لعزمة كامنة فى أناه
تكسو الغزاة القاطنى أرضها ... ما نسجت للحرب أيدى الغزاه
سود وتحمر الظبا حولها ... كأعين الرمد بدت للأساه
لله جيش منك لا ينثنى ... إلا بنصل دميت شفرتاه
ما بين عقبان ولكنها ... خيل وفرسان كمثل البزاه
آساد حرب فوق أيديهم ... أساور الطعن فهم كالحواه
تقلدوا الأنهار واستلأموا الـ ... ـغدران فالنيران تجرى مياه[1]

ويروى ابن الأثير أن جماعة من الشيعة فى مصر ثاروا سنة ٥٨٤ هـ بالقاهرة ونادوا ليلا بشعار الشيعة: يا آل على يا آل على، وسلكوا الدروب ينادون الناس ظنا منهم أن أهل البلد يلبون دعوتهم ويخرجون معهم لإعادة الدولة العلوية وإخراج من كان محبوسا فى القصر من أسرة الفاطميين، ولكن لم يلتفت إليهم أحد من المصريين ولا أعارهم سمعه، فلما رأوا ذلك تفرقوا ثم أخذوا، وكتب بذلك إلى صلاح الدين فأهمّه أمرهم وأزعجه[2]، وفى أواخر القرن السابع فى سنة ٦٩٧ هـ ظهر شخص فى الصعيد ادعى أنه داود بن العاضد الفاطمى، ودعا لنفسه فاستجاب له عدد كبير من أهل الصعيد ومدحه بعض الشعراء ولكن حركته فشلت.

نتبين من ذلك أن الأيوبيين لم يستطيعوا أن ينتزعوا العقيدة الفاطمية من نفوس المصريين دفعة واحدة، وأن أثر الدولة الفاطمية ظل فى مصر بعد انقراض هذه الدولة الشيعية.

---

(١) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٢٠٩.
(٢) ابن الأثير: الكامل: حوادث سنة ٥٨٤ هـ.